

الفصل الأول

تقدير ابن المبارك

جمع القرن الثاني للهجرة صفوة من خيار المؤمنين الذين كانوا قمة في العلم ، وكانوا قمة في الأخلاق الكريمة .

ولقد وحدت السنة الشريفة بين مشاربهم ونزعاتهم .
لقد كانت دراسة السنة في هذا العصر طابعاً يشبه أن يكون عاماً بين المثقفين ثقافة عالية ، ومن بين هؤلاء ثلاثة رجال جمع بينهم العلم وجمعت بينهم الصداقة .

أحدهم : سفيان الثوري رضى الله عنه ، وقد بلغت منزلته في الحديث أن كان يقال له : أمير المؤمنين في الحديث - وكان مسنده يحوى ثلاثين ألف حديث ، ومع ذلك فقد كان يقول : « ما حدثت - مما أحفظ - إلا بواحد من كل عشرة أحاديث »

وبلغت منزلته في مكارم الأخلاق أن كان قوة يضىء السبيل للحيارى والسالكين .

ولقد ألقى بنفسه في قوة وصدق وإخلاص في الحرب التي تدور - وهي تدور على العصور - بين الفضيلة والرذيلة .

لقد تعرض بالنصيحة الدائمة للشعب ، وتعرض بالنصيحة الدائمة للحاكم إلى أن ضاق بنصائحه أبو جعفر المنصور - كما يضيق بالنصح كل طاغية - فنأدى : « إذا رأيتم سفيان الثوري فاصلبوه » ولكن الله

سيحانه حفظه من كل سوء بسبب إخلاصه ، ومات أبو جعفر وبقي
سفيان الثوري - ولقد سئل مرة ابن المبارك : مَنْ أئمة الناس ؟ فقال :
سفيان وذووه .

أما الثاني : فهو الفضيل بن عياض رضى الله عنه ، محدث ثقة ،
روى له أئمة الحديث من أمثال البخارى ، ومسلم رضى الله عنهما ،
وقد بلغ الفضيل القمة فى الورع وفى محاسبة النفس فى الدقيق من
أمرها والجليل ، بحيث يكون كل عمل من أعماله خالصاً لوجه الله
تعالى .

لم يقف بياب سلطان رغبة أو رهبة ، وإنما أتاه السلطان إلى عقر
داره ؛ فكان استقباله للسلطان استقبال العالم المؤمن الورع الذى يعتر
بالله ويثق فيه ويخشى الله ولا يخشى أحداً إلا الله .
وله - كصديقه سفيان الثوري - فى مجال الصلة بالسلطان حوادث
ارضى فيها الله والفضيلة .

ومن تقدير ابن المبارك للفضيل ، قوله : قد جمعت علم العلماء
فليس فيما جمعت أحب إلى من علم الفضيل بن عياض .
وأما ثالث هؤلاء الصفاة : فهو عبد الله بن المبارك .

ومن تقدير سفيان الثوري والفضيل بن عياض له ، ما يلى :
روى عمران بن موسى الطرسوسى قال : جاء رجل فسأله سفيان
الثوري عن مسألة فقال له : من أين أنت ؟ . فقال : من أهل المشرق .
قال : أو ليس عندكم أعلم أهل المشرق ؟ . قال : ومن هو يا أبا عبد الله ؟
قال : عبد الله بن المبارك .

قال : وهو أعلم أهل المشرق ؟ قال : نعم ، وأهل المغرب .

وعن أحمد بن عبدة ، قال كان فضيل وسفيان ومشيخة جلوساً في المسجد الحرام ، فطلع ابن المبارك من الثنية ، فقال : سفيان : هذا رجل أهل المشرق .

فقال فضيل : هذا رجل أهل المشرق وأهل المغرب وما بينهما . ولا نحب أن نوازن بين هؤلاء الثلاثة ، ولا بين عبد الله بن المبارك وغيره من أفاضل عصره ، فإننا نجلهم عن أن نعقد موازنة بينهم ، فهم أهل للفضل وأهل للثناء .

وهؤلاء الأئمة وأمثالهم يجب علينا أن نوضح من سيرهم لشبابنا ما ينير الطريق المستقيم أمامهم ، إن سيرهم تضع شبابنا في جو إسلامي من ناحية الفكر ، وفي جو إسلامي من ناحية السلوك ، وسيرى شبابنا مثلاً علياً . يُندرُ أن يجد الإنسان ما يضارعها في تاريخ الغرب في ماضيه أو في حاضره .

لقد رسم الإسلام بطابعه - وما زال - طائفةً من الناس هم المثل العليا للإنسانية : استمدوا شعارهم من الجو الرباني الذي يشع من القرآن الكريم ومن السيرة النبوية الشريفة فأسلموا وجوههم لله ، واستجابوا إلى ما رسمه الإسلام من سلوك مبنى على إسلام القلب لله .

والأمة الإسلامية : أحوج ما تكون الآن إلى وضع الشباب ، بل ومن هم أسنُّ من الشباب ، في الجو الإسلامي الصادق .

والوسيلة السهلة الجذابة في ذلك إنما هي التحدث عن سيرة رجال الإسلام الصادقين أمثال مالك والشافعي وابن حنبل ، وأمثال الحسن البصري ، وعمر بن عبد العزيز ، وسفيان ، والفضيل ، وابن المبارك

والبخارى ، وعشرات غيرهم فى كل فن من فنون العلم ، وفى كل قمة من قمم الفضيلة .

ونعود إلى ابن المبارك ، وإذا كنا نمتنع عن الموازنة فإننا لا يسعنا إغفال تقدير العلماء لعبد الله بن المبارك سواء أكانوا فى عصره ، أم كانوا بعده ، وقبل أن نورد تقدير العلماء له نحب أن نقول إن الكثير من هذه التقديرات يمكن أن تقال فى أمير المؤمنين فى الحديث سفيان الثورى وفى الإمام الورع - القمة فى الورع - الفضيل بن عياض . ونحب أن نبدأ من هذه التقديرات بما أورده حاتم الجوهري فقال : حدثنا أسود بن سالم قال : كان ابن المبارك إماماً يقتدى به ، كان من أثبت الناس فى السنة ، إذا رأيت رجلاً يغمز ابن المبارك بشيء فاتهمه على الإسلام .

ونحب أن نقف عند هذه الكلمة ونتساءل : لماذا يتهم على الإسلام من يغمز عبد الله بن المبارك ؟ لماذا ؟ إن التعليل لذلك واضح من الجوى الإسلامى كله ، إن الله سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى من إخراج الإمام البخارى :

« من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » وأولياء الله حَدَدَ اللهُ سبحانه صفاتهم ، إنهم :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : الآية ٦٣] .

وقد كان الإمام ابن المبارك فى القمة من الإيمان ، وفى الذروة من التقوى ، فمن غمزه فهو فى حرب من الله ، وهو إذن متهم على الإسلام - ولكن الأمر ليس خاصاً بابن المبارك ، فإن كل من غمز

وليا من أولياء الله فإنه في حرب من الله سبحانه ، وهو بالتالى متهم على الإسلام .

إن بعض الناس يضيق بالفضيلة ذرعاً لأن نفسه أظلمت واستحبت الحياة الدنيا بشهواتها وأهوائها على الآخرة ، وهى لذلك تحب أن تلوث كل فاضل وتتقص كل كامل ؛ ومن هنا كانت عداوة الأولياء ، وعداوة الأولياء هى عداوة لصفاتهم ، أى عداوة للإيمان وعداوة للتقوى فمن عاداهم اتهم فى إسلامه .

وتقدير آخر صادر عن علم من أعلام العلم : إنه ابن عيينة يقول : « نظرت فى أمر الصحابة ، وأمر ابن المبارك ، فما رأيت لهم عليه فضلاً إلا بصحبتهم النبى ﷺ وغزوهم معه » !

إن الصحابة رضوان الله عليهم كرجال لا يفضلون ابن المبارك ، إنه كان مجاهداً كما كانوا يجاهدون ، وكان مخلصاً كما كانوا مخلصين ، وكان عالماً بالسنة ، وكان فاضلاً .

يد أن ابن عيينة حينما تحدث عن صحبتهم للنبي ﷺ وغزوهم قفز بهم فى الفضل قفزة هائلة تقطع الرقاب دونها ؛ لقد اقتبسوا من أنوار رسول الله ﷺ كل بحسب استعداده ، ولقد قال رسول الله ﷺ فيهم فيما رواه عمران بن حصين رضى الله عنهما وأخرجه البخارى - « خير أمتى قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .

وقال صلوات الله وسلامه عليه فى أبى بكر رضى الله عنه : « إن من أمن الناس على فى صحبتته وماله أباً بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أباً بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام ، ومودته » . وقال فى عمر رضى الله عنه فيما رواه سعد بن أبى وقاص

رضى الله عنه قال : استأذن عمر على رسول الله ﷺ وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته ، فلما استأذن عمر قمن فبادرن الحجاب ، فأذن له رسول الله ﷺ فدخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك ، فقال عمر : أضحك الله سنك يا رسول الله ؛ فقال النبي ﷺ : عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي ، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب . فقال عمر : فأنت أحق أن يهين يا رسول الله ، ثم قال عمر : يا عدوات أنفسهن أتهينني ولا تهين رسول الله ﷺ ؟ فقلن : نعم . أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : إيها يا ابن الخطاب ، والذي نفسى بيده ما ليك الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك فجا غير فجاك^(١) .

وقال فى عثمان رضى الله عنه فيما روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان رسول الله ﷺ مضطجعا فى بيتى كاشفا عن فخذه أو ساقه ، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث ، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدث ، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابه ، فدخل فتحدث ، فلما خرج قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك ؟ فقال ﷺ : ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة^(٢) .

وقال فى الإمام على رضى الله عنه فيما رواه عامر بن سعد بن

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه الإمام مسلم .

أبي وقاص عن أبيه قال : رسول الله ﷺ لعلي : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي »^(١) .

وقال فيه أيضاً فيما رواه مسلمة قال : كان علي قد تخلف عن النبي ﷺ في خيبر وكان به رمد ، فقال أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ ؟ فخرج عليّ فلحق بالنبي لله ، فلما كان مساء الليلة التي فتحها الله في صباحها قال رسول الله ﷺ : لأعطين الراية أو ليأخذن الراية غداً رجل يحب الله ورسوله ، أو قال : يحب الله ورسوله يفتح الله عليه ، فإذا ما نحن بعلي وما نرجوه : فقالوا هذا علي ، فأعطاه رسول الله ﷺ الراية ففتح الله عليه^(٢) .

وكان منهم سيف الله ، روى البخاري عن أنس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ ، نعي زيدا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم ، فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب وعيناه تذرغان حتى أخذها سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم^(٣) .

وحواري رسول الله ﷺ : عن جابر رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : إن لكل نبي حواري ، وإن حواري الزبير بن العوام^(٤) .

وما من شك في أن ابن عيينة لم يكن يقصد كبار الصحابة ، ومع ذلك فإن هذه الكلمة حينما تصدر عن ابن عيينة لها وزنها الكبير ،

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه البخاري .

(٤) رواه البخاري .

لأن ابن عيينة كان من أعلم الناس بالسنة ، وبفضل الصحابة رضوان الله عليهم .

ولعل من أسباب هذه الكلمة ما يعلمه ابن عيينة من صفات كثيرة تحلى بها ابن المبارك ، فقد روى أبو حاتم عن إسحاق ابن محمد بن إبراهيم المروزي : نعى ابن مبارك إلى سفيان بن عيينة فقال : لقد كان فقيها عالماً عابداً زاهداً شيخاً شجاعاً شاعراً .

ولقد تحدث الكثير ممن كتب عن ابن المبارك عن إمامته ، والإمامة هنا تعنى الإمامة فى العلم ، فعن العمري يقول : ما رأيت فى دهرنا هذا أحداً يصلح لهذا الأمر إلا رجلاً أتانى إلى منزلى فأقام عندى ثلاثاً يسألنى عن غير ما يسألنى عنه أهل هذا الدهر ، فصيح اللسان ، إلا أن اللغة شرقية يكنى أبا عبد الرحمن ، معه غلام يقال له سفير ، فقلنا له : هذا عبد الله بن المبارك ، فقال : هكذا ينبغى ، إن كان معى أحد يصلح لهذا الأمر فذاك ، قال عبيد - يعنى الاقتداء بالعلم .

وعن عبد الرحمن بن مهدي قال : الأئمة أربعة : سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، وحماد بن زيد ، وابن المبارك .

وعن المسيب بن واضح قال : سمعت أبا إسحاق الفزاري يقول : « ابن المبارك إمام المسلمين » ، « ورأيت أبا إسحاق بين يدي ابن المبارك قاعداً يسأله » .

وقال العمري : ابن المبارك يصلح لهذا الأمر - فقال له رجل : أى شىء ؟ قال : الإمامة .

ولكنها أيضاً تعنى الإمامة فى الفضل ، فهو عالم ، فاضل ، كما تحدث

المؤرخون عن علمه فإنهم تحدثوا عن فضله ، بل إنهم كانوا يعدون صفاته الكثيرة المبررة لإمامته ومن ذلك :

قال الحسن بن عيسى : اجتمع جماعة من أصحاب ابن المبارك مثل ابن موسى ومخلد بن حسين وغيرهما فقالوا : تعالوا حتى نعد خصال ابن المبارك من أبواب الخير ؛ فقالوا : جمع العلم ، والفقه ، والأدب ، والنحو ، واللغة ، والشعر ، والفصاحة ، والزهد ، والورع ، والإنصاف ، وقيام الليل ، والعبادة ، والحج ، والغزوة ، والفروسية ، والشجاعة ، والشدة في بدنه ، وترك الكلام في ما لا يعنيه ، وقلة الخلاف على أصحابه .

وقال الحاكم : « هو إمام عصره في الآفاق ، وأولاهم بذلك علما وزهدا وشجاعة وسخاء » .

وقال ابن حبان في الثقات : كان فيه خصال لم تجتمع في أحد من أهل العلم في زمان في الأرض كلها .

وعن العباس بن مصعب قال : جمع عبد الله بن المبارك ؛ الحديث والفقه والعربية ، وأيام الناس ، والشجاعة والتجارة والسخاء والمحبة عند الفراق » .

وقال إسماعيل بن عباس : ما على وجه الأرض مثل ابن المبارك ، ولا أعلم أن الله خلق خصلة من خصال الخير إلا وقد جعلها فيه » .

وبقى بعد ذلك التقدير العام لابن المبارك ، يقول علي بن المديني : « انتهى العلم إلى ابن المبارك ومن بعده إلى يحيى بن معين » .

ولقد سئل يحيى بن معين - الذي يقول علي بن المديني : إن العلم انتهى إليه - عن ابن المبارك ، فقال إنه : « سيد من سادات المسلمين ،

وقال أيضاً : كان عبد الله بن المبارك رحمه الله ، كيساً متثبتاً وثقة ، وكان علماً صحيح الحديث .

وعن عبيد بن جناد أبو سعيد قال : قال لي عطاء بن مسلم : ياعبيد ؛ رأيت عبد الله بن المبارك ؟ قلت : نعم ، قال مارأيت مثله ولا ترى مثله .

وقال النسائي : « لا تعلم في عصر ابن المبارك أجل من ابن المبارك ولا أعلى منه ، ولا أجمع لكل خصلة محمودة منه » .
وأما تقدير أصحاب كتب الطبقات ، فإنه موفور :

من ذلك تقدير صاحب كتاب الخلية ، قال : « ومنهم السخي الجواد ، الممهد للمعاد ، والمتزود من الوداد ، أليف القرآن والحج والجهاد جاد فساد وروجع فزاد ؛ ماله مشارك ، وفعله مبارك وقوله مبارك ؛ شاهانشاه ، عبد الله بن المبارك رضى الله تعالى عنه .

وقيل : « إن التصوف اعتداد لا ازدياد ؛ واستعداد وارتداد » أهـ .
وتقدير الشعراء : يقول عمار بن الحسن يمدح ابن المبارك :

إذا سار عبد الله من مرو ليلة فقد سار منها نورها وجمالها

إذا ذكر الأخيار في كل بلدة فهم أنجم فيها وأنت هلالها

وقد كان ابن المبارك صديقاً للإمام مالك ، يقول يحيى بن يحيى الأندلسي : كنا في مجلس مالك فاستؤذن لابن المبارك ، فأذن فرأينا مالكاً تزحزح له في مجلس ، ثم أقعده بلصقه ولم أره تزحزح لأحد في مجلسه غيره ، فكان القارئ يقرأ على مالك فربما مر بشيء فيسأله مالك ما عندكم في هذا ؟ فكان عبد الله يجيبه بالخفاء

ثم قام فخرج ، فأعجب مالك بأدبه ، ثم قال لنا : هذا ابن المبارك
فقيه خراسان .

ونختم هذه المجموعة من الآراء فى ابن المبارك بما قاله الجليلى فى
الإرشاد : ابن المبارك الإمام المتفق عليه ، له من الكرامات ما لا يحصى ،
يقال : إنه من الأبدال .